على رغبة سوفياتية في الحصول على موافقة اسرائيلية مسبقة على القرار، وشكّل، في الوقت عينه، تبدّلاً جدياً في موقف موسكو، التي ظلّت، حتى ذلك الحين، أمينة على الرفض العربي لمفاوضات مباشرة مع اسرائيل. وأخيراً، أكد القرار ضرورة الجهود المشتركة للقوتين العظميين ومسؤوليتهما المشتركة في الحل المقبل(١٥).

ومن أجل دفع الاطراف المتحاربة الى التقيّد بقرار مجلس الامن الدولي، بذلت كل من موسكو وواشنطن جهوداً لدى حلفائها. على الأثر، وجّه بريجينيف رسالة تطمينية الى السادات، وقام كوسيغن بزيارة للغاية عينها الى كلٍ من دمشق وبغداد لتثبيت وقف اطلاق النار. بيد ان القوات الاسرائيلية بدت غير مكترثة للالتزام بهذا القرار، خصوصاً على الجبهة المصرية، الامر الذي اضطر الحكومة السوفياتية الى اصدار بيان، في ٢٣ تشرين الاول (اكتوبر)، انحت فيه باللائمة على القيادة الاسرائيلية، وقالت ان الخرق يشكّل «انتهاكاً صارخاً لقرار مجلس الامن الدولي، وتحدّياً لشعوب العالم أجمع». وأعلن البيان «ان الحكومة السوفياتية والشعب السوفياتي بأسره يعربان عن الشجب الغاضب لهذه الاعمال الغادرة من جانب الحكومة الاسرائيلية، ويطلب منها ان توقف، فوراً، اطلاق النار وجميع العمليات الحربية ضد قوات الدول العربية». وحذّر «الحكومة الاسرائيلية من العواقب الوخيمة للغاية التي ستنجم عن مواصلة أعمالها العدوانية»(١٦).

على الرغم من لغة التهديد الواضحة التي انطوى عليها بيان الحكومة السوفياتية، فان الهجوم الاسرائيلي لم يتوقف على الارض. فعلى الجبهة المصرية، عُزل الجيش الثالث المصري عن قواعده، وتوجّه السادات الى حركة عدم الانحياز، ومن ثمّ الى الاتحاد السوفياتي، طالباً فرض احترام قرار مجلس الامن الدولي. وأُصدر القرار الثاني بوقف اطلاق النار، الّا ان اسرائيل استمرت في التقدّم على نحو مقلق بالنسبة الى موسكو، فرفعت الاخيرة حدّة لهجتها، ونشرت وكالة الانباء الرسمية «تاس» بياناً يهدّد اسرائيل، ويدعوها الى التقيّد بقرار مجلس الامن الدولي، ويطالبها بسحب قواتها الى خطوط ٢٢ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣(١٧). وفي اليوم التالي لاصدار القرار (٢٤ تشرين الاول ـ اكتوبر)، قابل السفير السوفياتي في واشنطن، اناتولي دوبرينين، كيسنجر مرتين متتاليتين، وسلّمه رسالتين من بريجينيف؛ الاولى تدعو الولايات المتحدة الاميركية الى الاستجابة لنداء مصر؛ والثانية قيل انها تنصّ على الآتي: «أقولها مباشرة، انه اذا كانت الولايات المتحدة الاميركية لا تجد ان العمل معنا ممكناً، في هذا المجال، فسنواجه ضرورة النظر، بالحاح، في مسألة اتخاذ خطوات ملائمة من طرف واحد»(١٨).

كيف يمكن تفسير هذا التصعيد السوفياتي المفاجىء؟ اختلفت التفسيرات في هذا الشأن. غير ان ما يمكن تأكيده، هنا، هو انه كان على الاتحاد السوفياتي ان يثبت، بما لا يترك مجالاً للشك، عدم تخلّيه عن حلفائه العرب في وقت الازمات، وان سياسة الانفراج ليست، بالضرورة، قيداً على تحرّكاته عندما يرى ان مصالحه باتت مهدّدة؛ اذ انه باضفائه الطابع الدرامي على النزاع، الى حدّ التأهّب النووي، كان يبرهن لحلفائه العرب انه سار الى الحدود القصوى للمساعدة التي يمكن تقديمها اليهم(١٩). لكن ذلك لم يكن يعني، بأيّ حال، ان موسكو أقدمت على مخاطرة غير محسوبة. فحالة التأهّب التي رصدتها واشنطن كانت قائمة طوال فترة الحرب، وانْ بشكل أقل؛ كما انه ليس من المؤكد ان موسكو كانت مصمّمة، فعلاً، على وضع واشنطن امام الامر الواقع بارسالها قوات الى مصر. اضف الى ذلك، انه لا يجدر ان يفهم ان التهديد السوفياتي بالتدخّل قد هدّد الانفراج الدولي، بل على العكس، انه دخل ضمنه، أي ان الانفراج الدولي كان كفيلاً بحل الأزمة بسبب شبكة العلاقات والاتصالات والروابط بين القوتين العظميين(٢٠).